المسرح المصري

للأستاذ محمود سامي أحمد

يأسى كل محب لفن التمثيل لهذا المصير المحزن الذى آل المسرح المصرى اليوم ، ولكن أنى للأسى والحزن أن يقوما ما اعوج من الأمور ، أو أن ينفخا الروح فى الجسد الهامد المستكن ؟

لن يصبح للمسرح المصرى شأن إلا يوم يتكاتف العاملون من رجاله ، فينصرفون إلى البحث الهادى ووضع الخطط السليمة دون ميل مع الهوى ، أو خضوع لأى مؤثر عاطفى ، ودون أن يقفزوا إلى نتائج مبتسرة لاتسندها مقدمات منطقية معقولة .

وقد رأيت أن أدلى على صفحات الرسالة ببعض ما يمن لى من آراء ، راجيا أن يقابلها رجال المسرح بصدر رحب ، وألا يسخطوا على ماقد يكون فيها من صراحة تؤلم ، فإنه الألم من مشرط الجراح يعقبه البرء بإذن الله .

نشأة المسرح المصرى مفتقدة :

التأمل فى نشأة المسرح فى مختلف البلاد يجد أنه انحدر من صلب العقيدة الدينية ، وأن أولى خطواته كانت من عمل الكهان ورجال الدين ، وأولى حفلاته كانت تقام فى المناسبات الدينية .

فهذا المسرح اليونانى ، وهو أقدم المسارح المعروفة لنا ، والمدروسة دراسة واضحة ؛ نشأ هذا المسرح عن ديانة الإله ديونيسوس إله الخمر عند اليونان .

كانت عبادة ديونيسوس ترمز إلى حياة الكروم ، هذه الأشجار التى تجف سوقها وتذبل أوراقها فى الشتاء ، ثم تعود مع الربيع إلى الحياة ، فتدب الحياة فى تلك السوق ، وتظهر الأوراق اليانعة وتثمر ثمرها الشهى ، فإذا طاب الثمر عصره القوم وخمروه ليبعث فى نفوس شاربيه السرور والنشوة . فديونيسوس إذن إله يحيا ويتألم ويموت ، ثم يبعث حيا !

ولما كان الكرم هو أهم المحاصيل اليونانية ، وكانت الماعز هى أهم ما يربى من حيوان ، فقد احتفل اليونانيون بإله الخمر بعد أن مزجوا عبادته بعبادة الماعز ، فكانوا يقيمون الحفلات العامة فى أواخر مارس وأوائل إبريل ، ويجعلون من مذبح الإله ، وهو ما كانوا يسمونه (التيميليه)، Thymele مركزا للاحتفال ، فكانت جوقة المنشدين تجتمع لتدور حوله مغنية راقصة ، بعد أن يلبس أفرادها جلود التيوس ، ومن ذلك الوقت أصبح الديترامبس وهو الغناء التوقيعى الذى تقوم به الجوقة يسمى التراجيديا أى غناء التيوس (وهو لفظ مركب من Tragos أى التيوس و ode أى غناء) ومن ذلك الوقت أصبح الكهنة والمتعبدون يلبسون جلود التيوس فى حفلاتهم الدينية تشبها بالساتير Satyre وهم صحابة الإله ديونيسوس .

ولم يقتصر الأمر على الغناء والرقص ، وإنما عمد الكهان إلى تمثيل طرف من حياة الإله يصلح لأن يكون نواة لتمثيلية ، فكان أحد الكهنة يمثل شخصية عدو من أعدائه الذين يريدون به الشر ، ويطارد حورية من حواريات الإله وقد أمسك بيده فأسا يهددها به ، فتجفل الحورية ، وتفر منه وقد ملأها الرعب واستبد بها الخوف . واستمرت الحال زمنا ، ليس إلا رقصا وغناء لايجمعه نظام خاص ، وإلا مشاهد صامتة فيها طرف من أسطورة وطرف من حركة ولكن لا حوار فيه . استمرت الحال كذلك إلى أن جاء الشاعر أريون ، الذى حول هذا النشيد الساذج إلى فن ، إذ فصل بين الجوقة ورئيسها ، وجعل هذا يغنى غناء فرديا لم يكن موجودا من قبل ، فترد عليه الجوقة مجتمعة ، ومن هنا نشأ الحوار .

ثم جاء دور تسبيس الذى يعتبر المبدع الأول للمأساة اليونانية إذ أنه حول هذه الأغانى والرقصات إلى حوار كامل ، رفعه أئمة المسرح اليونانى اسكيلوس وسوفوكليس وبور وبيديز إلى مرتبة الفن الكامل .

وكما تطور الفن المسرحى من الرقص والغناء الساذج إلى المسرحية الفنية الكاملة ، كذلك تطور الموضوع ، فبعد أن كان وقفا على تمثيل حياة الآلهة ، أضاف اليونانيون إليه حياة الأبطال ، فأخذوا يتغنون بها ، ويمثلون قصصا منها ، معتمدين فى ذلك على القصص الطرادى والقصص الطيبى ، ثم طغى تمثيل حياة الأبطال على حياة الآلهة ، وانفرد بالأمر ، ولم يعد للآلهة مكان على المسرح ،

ولكنها ظلت مع ذلك فى المسرح اليونانى تسيطر على أعمال الناس وتتحكم فى مصائرهم .

ولم يشذ المسرح المسيحى عن ذلك ، ومن عجب أن ينشأ المسرح فى أحضان الكنيسة ، وهى التى حاربت التمثيل الرومانى وكانت سبباً من أسباب انهياره ! ولكن لاغرابة فى ذلك ، فقد أثبتت الدراسات المختلفة فى علم الاجتماع وطبائع الشعوب ، أن كل دين قابل لأن ينشىء حادثة مسرحية ، وأن جميع الطقوس الدينية قابلة لأن تتخذ الشكل الدراماتيكى ، والدليل على ذلك أنه نشأ عند الفرس نوع من التمثيل لم يتطور إلى المسرحية الكاملة وقد نشأ عن الاحتفال باستشهاد الحسين رضى الله عنه .

ولد المسرح المسيحى إذن من طقوس الدين ، وذلك للتأثير فى قلوب المؤمنين ، فكان القسس والرهبان يمثلون بعض مشاهد من حياة المسيح ، فيمثلون رفعه ثم يمثلون مولده ، وأقدم الوثائق التى تصف لنا هذه المشاهد هى الوثيقة التى تركها الراهب الأنجليزى سانت إلفولد ، فكان القسس يضعون إلى جانب المذبح تابوتاً يرمز إلى القبر ، ثم يتقدم قسان يحملان صليبا ملفوفا بالقماش يرمزون به إلى المسيح ، فيضمانه فى التابوت ، يتخلل ذلك كله الأناشيد . وأقدم التمثيليات ذات الحوار هى تلك التى كانت تمثل فى عيد الفصح ، إذ كان يتقدم قسيسان يلبسان مسوحا بيضاء يمثلان ملكين ، ثم يلتقيان بآخرين يمثلان إمرأتين ويقف الجميع أمام التابوت الفارغ ، فيسأل أحد الملكين

— عمن تبحثان فى الضريح ؟

فتجيب إحدى المرأتين :

— إننا أيها السماويان نبحث عن الذى صلب .

فيرد الملك الثانى :

— لن تجداه هنا ، فقد ارتفع إلى السماء كما تنبأ ، فاذهبا وأعلنا فى كل مكان ذلك ؛ أعلنا أنه ارتفع من ضريحه إلى السماء

وهكذا نشأ المسرح المسيحى بهذه التمثيليات الدينية Liturgical drama ، ثم تطورت بعد ذلك إلى مناظر كاملة ضاقت عنها الكنيسة ، فخرج التمثيل إلى فناء الكنيسة أو المقبرة ، ثم إلى دور البلديات

ولا محذور التمثيل من صلب العقيدة الدينية نظر الجمهور إلى هذا المسرح لنظرة القداسة ، وكانوا يؤمون المسارح أو أى مكان يقام فيه التمثيل كما يؤم المؤمن معبدا يؤدى فيه الفريضة لله . وهكذا تأصل حب المسرح فى النفوس ، حتى أصبح الأوروبيون يرون المسرح رسالة روحية ، وحتى أصبح فى نظرهم ضرورة من ألزم ضرورات الحياة .

أما فى مصر ، فالمسرح نقل إلينا دون أساس قومى أو دينى ، نقل إلينا بما ترجم أو اقتبس من الروايات الأوربية ، ومثلت هذه الروايات دون أن يراعى فيها فى أول الأمر اتفاقها وعقلية المصرى وتقاليده ، ولهذا ظل المسرح بعيدا عن أفئدة الجمهور ، ذلك الجمهور الذى أقبل على دور اللهو الأخرى التى تخاطب حسه وغريزته ، وانصرف عن المسرح الجدى الذى يخاطب فيه العقل والذوق ، فكاد نجم ذلك المسرح أن يأفل مع كل ما تقدمه الدولة من أموال لإعانة الفرقة المصرية .

وليس أمر المسرح المصرى بدعا فى ذلك ، فالمسرح الرومانى القديم نال نفس المصير ، فقد نشأ نفس النشأة المتصلة بترجمة المسرحيات اليونانية أو اقتباسها أو تقليدها ، فلم يجد الإقبال الكافى ، حتى أن مسرحيات سنيكا الفيلسوف لم تمثل ، وإنما كانت تقرأ على الناس فى قاعة للمحاضرات تسمى الأوديون ، وهذه القاعة ابتدعها الرومان ليستمع الناس فيها إلى المحاضرات أو ما يقرأ عليهم من التمثيليات . وهكذا تحول المسرح الرومانى على مر الزمن إلى مسرح استعراضى يعتمد على الرقص والغناء واستثارة الغرائز الدنيا للمشاهدين .

لهذا السبب — وهو النشأة المنتحلة للمسرح المصرى — امتلأت المسارح الاستعراضية والفكاهية ؛ وخوى مسرح الفرقة المصرية ، ولهذا السبب أيضا امتلأت الروايات السينمائية المصرية بمشاهد الرقص والغناء بمناسبة وبغير مناسبة .

فالواجب على القائمين على أمر المسرح أن يستميلوا الجمهور إلى فنهم ، ولا أقصد بذلك أن يتبذلوا فيما يعرضون ، كما يحاول الفرقة المصرية اليوم ، وإنما أقصد إلى أن يبثوا حب المسرح فى النفوس ، وأن يرفعوا بهم رويدا رويدا حتى يحلقوا فى أبعد الآفاق وأرقاها .